الفصل الأول

المليادير حمامة السلام

الأول من نوفمبر 1944م، استقبل بهاء الدين الحريري المزارع السُّنّيّ الفقير ابن صيدا ابنه البكر الذي أطلق عليه اسم رفيق وهو أكبر أبنائه الأربعة سالم وشفيق وبهية، وترعرع الطفل رفيق في بيت قريب من بساتين البرتقال، وعلى مرمى حجر من مخيم عين الحلوة ثالث أكبر مخيمات اللجوء الفلسطيني في لبنان.

وعندما وصل رفيق إلى مرحلة الصبا وبالتحديد في الثالثة عشرة من عمره، كان من الطبيعي أن يهتم بالقضية الفلسطينية مثل كل أقرانه من سُنَّة لبنان الذين حَزَّ في نفوسهم ما تعرض له أشقاؤهم الفلسطينيون.

تَأَثَّر الحريري كذلك بشعبية جمال عبد الناصر وحماسته الثورية؛ فانضم مع صديقيه ورفيقي دراسته بمدرسة الملك فيصل عدنان زيباوي وفؤاد السنيورة إلى حركة القوميين العرب.

أسس د.جورج حبش طبيب الأطفال الفلسطيني وخريج الجامعة الأمريكية ببيروت حركة القوميين العرب عام 1956م؛ لإبقاء القضية الفلسطينية حيةً في عقول وقلوب العرب، ولمساعدة عبد الناصر في نشر أفكاره القومية الوحدوية، إضافةً لمناقشتها آخر المستجدات على الساحة السياسية.

تَحَمَّسَ الحريري للقضية الفلسطينية أَيَّما تَحَمُّس خاصةً مع مواظبته على حضور اجتماعات حركة القوميين، وقاد العديد من المظاهرات المؤيدة للحق الفلسطيني،لكن دوام الحال من المحال.

اضطر الحريري مع تقدمه في دراسته للتخفيف من نشاطه السياسي،ودفعه إلى ذلك طموحه للهرب من حالة الفقر والعَوَز التي عاشها في طفولته بعدما أدخل أبوه في رأسه أن التعليم - والتعليم فقط - هو وسيلته الوحيدة لتحقيق طموحاته المستقبلية، ولم يخيب الحريري ظنون أبيه.

أنهى الحريري مع زيباوى والسنيورة دراسته الثانوية بمدرسة المقاصد العريقة، وحصل الثلاثة على تقدير جيد جدًا أَهَّلَهُم لتقديم أوراق التحاقهم بكلية التجارة في جامعة بيروت العربية التي تخصصوا فيها في المحاسبة.

إلى جانب دراسته عمل الحريري عاملًا يصحح بروفات الطباعة في مجلة الصياد التي تُصْدِرُها صحيفة الأنوار اليومية، لَكِنَّ المال الذي حَصَّلَ من هذا العمل لم يكن يفي سوى بالنذر اليسير من احتياجاته، ووجب على الشاب الصيداوي إيجاد طريقة ليوفر لنفسه حياةً كريمةً.

عام 1964م، غادر الحريري إلى السعودية بمفرده تاركًا عائلته في بيروت، وحصل على وظيفة مدرس رياضيات في جدة، لكن هذه الوظيفة بمفردها لم تحقق له الدخل الذي يريد، فعمل إلى جانبها محاسبًا في شركة بناء، وحصل منها على تعهدات بناء فرعية.

بعد عدة سنوات وتحديدًا عام 1969م أَسَّسَ الحريري شركته الخاصة والتي أطلق عليها اسم (بري سيكونست) للمقاولات، وأصبح من بعدها الحريري يزور أسرته في لبنان كل ستة أشهر، وبدأ الحريري أولى خطواته في رحلة جمع الثروة، لكن العثرات ظهرت في طريقه تباعًا.

تسبب ارتفاع أسعار النفط عقب حرب 1973م في ارتفاع أسعار مواد البناء؛ مما تسبب في تدهور أرباح شركة الحريري على الرغم من اتجاه الحكومة السعودية لإجراء سلسلة من برامج التطوير العمراني التي رصدت لها مليارات الدولارات.

على الرغم من ذلك،لم يَجْنِ الحريري من هذه المشروعات أرباحًا طائلةً كما كان يتمنى؛وذلك بعدما ارتفعت أسعار الحديد والأسمنت المكونين الرئيسيين في البناء إلى أربعة أمثال سعرهما السابق، وأصبح دخل الحريري يكفيه بالكاد.

فرضت هذه المستجدات غير المتوقعة على الحريري عبئًا جديدًا تَمَثَّلَ في العمل فترات إضافية لتعويض خسائره، وبات الحريري لا يرى أبناءه وعائلته إلا لمامًا،فقد كان ولداه بهاء وسعد يعيشان مع جديهما وعمهما وعمتهما وأمهما في منزل العائلة بصيدا الذي عادوا إليه بعدما اضطربت الأوضاع في بيروت نتيجة الخلافات السياسية التى احتدمت بين الساسة.

عام 1974م تعرف الحريري على المهندس اللبناني فريد مكاري واستعان به ليعاونه في عمله، وبدأت الشركة تستعيد عافيتها شيئًا فشيئًا، وبدأ الحريري يعوض خسارته في العام السابق، ورغم كثرة أشغاله وقلة زياراته للبنان، فإن لبنان لم يغب لحظةً عن مخيلته، وظل الحريري يتابع أخباره عن كثب.

انفجرت الحرب الأهلية اللبنانية في الثالث عشر من أبريل 1975م بعد طول نزاع بين المارونية السياسية الرافضة لتعديل الدستور اللبناني والمعارضة لوجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، واليسار والسُّنَّة اللبنانيين الرافضين للهيمنة المارونية على الحياة السياسية والاقتصادية

والمؤيدين للوجود الفلسطينيفي لبنان، وتَدَخَّل الشرق والغرب في هذا النزاع الأهلي،لكن الجميع في النهاية أوكل إدارة الأزمة اللبنانية لأسد دمشق القاسي:

حافظ الأسد.

برضا أمريكي سوفيتي وموافقة إسرائيلية دخلت القوات السورية إلى لبنان في الأول من يونيو 1976م تحت ذريعة وقف الحرب وإحلال السلام في لبنان، خاصةً بعدما طلب الرئيس اللبناني وقتها سليمان فرنجية من صديقه السوري مساندة الموارنة ضد الفلسطينيين واليساروالسُّنَّة بعد أن أصبحت هزيمة الموارنة مؤكدةً،ومنذ تَدَخُّل الأسد في لبنان أصبح لبنان نهرًا من الدماء ومرتعًا للقتل والخراب.

اعتصر الألم قلب الحريري على حال وطنه الذي كان يلقب بسويسرا الشرق، فإذا به يصبح أثرًا بعد عين لا تخرج منه إلا أخبار المجازر والمؤامرات،لكن ذلك لم يُثْنِ الحريري عن متابعة سعيه ليحقق حلمه كرجل أعمال مرموق يمكن أن يفيد بلاده في يوم من الأيام.

تَبَدَّلَت أحوال الحريري عام 1976م عندما تَعَرَّف على رجل الأعمال اللامع في مجال البناء ناصر رشيد ذي الصلة الوثيقة بالعائلة المالكة، وتضافرت مجهودات الرجلين لبناء ثلاثة مجمعات فخمة في الرياض لحرم الملك خالد

بن عبد العزيز عاهل المملكة،وقد كان هذا المشروع فاتحة خير على الحريري.

استطاع الحريري بعد هذا المشروع سداد جميع ديونه، واشترى أول طائرة نفاثة خاصة له، وتزوج من زوجته الثانية نازك عودة فلسطينية الأصل،وقد نال المشروع استحسان العاهل السعودي الذي أسند لرشيد والحريريإنشاء فندق المسرة في الطائف،والذي اعتبره الملك خالد منتجعًا صيفيًا له، ومنح الشريكين مهلة تسعة أشهر لإتمام المشروع بدءًا من نهاية 1976م.

ناقش الحريري خطة المشروع مع رشيد،واعتبر الحريري هذا المشروع فرصة عمره إذا ما نال إعجاب الملك خالد، خاصةً مع ضخامة المبلغ المرصود له والذي وصل لمائة مليون دولار.

عرض الحريري على شركة فرنسية تعاني ماليًا تسمى (أوجيه) تنفيذ المشروع على أن يكون ذلك المشروع آخر مشروعاتها قبل أن يشتريها الحريري، وكان حدس الحريري صادقًا.

انتهى بناء الفندق قبل المهلة المحددة بأسبوع،وقد سعد الملك خالد بذلك الأمر للغاية، وتعبيرًا عن امتنانه للحريري منح الحريري الجنسية السعودية

وأسند إليه المزيد من مشاريع البناء الخاصة بالعائلة المالكة، ومن وقتها أصبح الحريري مُقَرَّبًا من العائلة المالكة.

عام 1978م،قفز الحريري قفزةً جديدةًفي عمله عندما أسس شركة (سعودي أوجيه) بالشراكة مع الشركة الفرنسية الأم في باريس، وفي العام التالي تَمَكَّنَ من شراء حصة شركائه الفرنسيين، وخلال فترة وجيزة كَوَّنَالحريري ثروةً طائلةً، واعتبررفيق كفاحه فؤاد السنيورة تلك الفترة أنها وقت حظوظ الحريري.

لم يغب لبنان الجريح عن مخيلة الحريري قط،وبدأ الحريري يلعب دورًا ملموسًافي الشأن اللبناني، فأعاد بناء مدرسته القديمة في صيدا، وأنشأ المعهد الإسلامي للثقافة والتعليم العالي، وكان هذا المعهد مؤسسة غير ربحية وذلك عام 1979م، والذي ساعد أكثر من خمسة وثلاثين ألف لبنانيفي مرحلة التعليم الجامعي.

وفي العام نفسه أقام الحريري مشروع (كفرفالوس) الذي ضم مدارس ومستشفى تعليمي وجامعة على مساحة مليوني متر مربع، واختار الحريري هذا الموقع عن عمد؛ نظرًا لوقوعه بين صيدا السُّنِّيَّة وقرى جنوب لبنان الشيعية وجبال الشوف الدرزية شمالًا كرسالة للسلام بين طوائف الوطن المتناحرة،وتَكَلَّف المشروع مائة وخمسين مليون دولار،ورغم حضوره

الاقتصادي كان الحريري حاضرًا على استحياء في الشأن السياسي اللبناني.

استخدم الحريري اتصالاته بالمسلمين والمسيحيين لإطلاق سراح الرهائن المحتجزين لدى ميليشيات الطرفين،ولم يخل ظهور الحريري من الجدل بعدما تساءل كثيرون:

ماشأن هذا الثَّرِيّ السُّنّيّ بالسياسة؟وماذا يريد الحريري من وراء أفعاله هذه؟

أثارت أفعال الحريري فضول بشير الجميل قائد اليمين المسيحي والرجل الماروني الأقوى على الساحة اللبنانية وقتها،فأرسل اثنين من مساعديه إلى باريس في يناير 1982م أحدهما ضابط في القوات اللبنانية والثاني من أعضاء حزب الكتائب وهو ميشيل سماحة الذي لخص لبشير لقاءه بالحريري قائلًا:

"تناولنا معه العشاء ثم أعادنا بسيارته إلى الفندق، حيث تحدثنا طوال الليل حتى الرابعة صباحًا عن أصله ونشأته وكيف جمع ثروته وما علاقته بالعائلة السعودية المالكة،لم يترك شيئًا يخصه إلا وحدثنا عنه."

ازدادت ممتلكات الحريريفي ذلك العام، وأضحى يمتلك امبراطوريةً من الأعمال من الشركات، من شركات البناء إلى الصناعات الخفيفة إلى

النشر، وصولًا إلى المصارف مثل مصرف البحر المتوسط الذي تولى إدارته فؤاد السنيورة،وبرز الحريري خلال ذلك العام كواحد من أثرى أثرياء العالم، لكن محنة بلاده ظلت تؤرقه، وكان لهيب الحرب اللبنانية يلفحه عن بعد.

السادس من يونيو 1982م،دخل اتفاق بشير الجميل وأرئيل شارون بإخراج منظمة التحرير الفلسطينية وتنصيب الجزار الماروني رئيسًا للبنان حيز التنفيذ عندما عبر الجيش الإسرائيلي الحدود الشمالية باتجاه بيروت.

حاصر شارون بجيشه العاصمة اللبنانية لما يقرب من ثلاثة أشهر انتهت بخروج ياسر عرفات وبعض من مقاتليه بحلول نهاية أغسطس،ومس القرح الصهيوني الحريري كما مس بني وطنه.

دَمَّرَ الاجتياح الإسرائيلي مشروع فالوس الذي أقامه الحريري قبل ثلاث سنوات، وقتل ألفًا ومائتي شخص من مدينته صيدا، وساءت الظروف الإنسانية في لبنان بأكمله عمومًا وفي صيدا على وجه التحديد.

فقد تَحَوَّلَ منزل الحريري هناك لملاذ آمن للمشردين من أهل المدينة الجنوبية، وقَدِمَ الإسرائيليون إليه وفتشوه بحثًا عن مسلحين فيه،وهنا قَرَّرَ الحريري استخدام موارده للتخفيف من آلام بني وطنه.

خلال صيف 1982م، أجرى الحريري اتصالات هاتفية متكررة مع مسئولي بلاده عارضًا عليهم تقديم أية معونات مالية أو عينية أو دبلوماسية سعودية ليقنع الإسرائيليين بالسماح بدخول المعونات الإنسانية للمدنيين المحاصرين.

اشترى الحريري سبعمائة طن من الأغذية والبطانيات، ودَبَّرَ سفينةً من ميناء ليماسول القبرصي على نفقته الشخصية، لكن جهود الحريري اصطدمت بالتعنت الإسرائيلي.

رفض الإسرائيليون السماح للسفينة بالرسو في ميناء صيدا، فاتصل الحريري بغسان تويني سفير لبنان في الأمم المتحدة طالبًا منه التدخل لتسليم المساعدات أو رفع علم الأمم المتحدة على السفينة عل ذلك يمنحها حق المرور للبائسين في بلد الأَرْز المنكوب، انتهت المكالمة بوعد من تويني أنه سيحاول إقناع الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم بالمساعدة في دخول السفينة.

نجح تويني في إقناع فالدهايم بطلب الحريري ورفع علم المنظمة الدولية على سفينة الحريري، ورست السفينة في ميناء صيدا مفرغةً شحناتها فيه لتصل لمستحقيها، اعتقد الحريري أن الأجواء في لبنان ستهدأ بعد رحيل منظمة التحرير الضيف الثقيل في سنوات وجودها الأخيرة، لكن بشيرًا الجميل أشعلها من جديد.

أعلن بشير الجميل نيته الترشح لرئاسة الجمهورية هادفًا إلى لبنان مستقل بعيدًا عن التدخل السوري والفلسطيني والإسرائيلي، طارحًا شعار 10452كم2 وهي مساحة لبنان،لم تنطل هذه الخدعة على الحريري العالم بتاريخ الجميل المعمد بالدماء.

ورأى الحريري في انتخاب الجميل على أسنة الحراب الإسرائيلية شَرًّا مستطيرًا وعنفًا لا تلوح نهايته في الأفق؛ فتَقَدَّم بمبادرة لنزع فتيل الأزمة قبل أن تنفجروتزيد لبنان جروحًا على جروحه.

تضمنت المبادرة تمديد ولاية الرئيس اللبناني وقتها إلياس سركيس وتأليف حكومة وحدة وطنية،وهاتف الحريري رئيس الوزراء اللبناني صائب سلام طالبًا منه رفض وصول الجميل لكرسي الرئاسة، لكن بشيرًا أخرج لسانه للجميع وانتُخِبَ الرئيس السابع للبنان؛ فأغضب ذلك أسد دمشق الكهل.

تأزمت العلاقات بين حافظ الأسد وبشير الجميل منذ استعان بشير بالإسرائيليين لحسم نزاعه العسكري مع الأسد في زحلة بين أبريل ويوليو 1981م، وأُجْبِر الأسد على الانسحاب من زحلة وإخلائها من المضادات الجوية التي أدخلها لمواجهة طائرات الكتائب التي أغارت على مواقع الجيش السوري بمساعدة إسرائيل،وتَيَقَّن الأسد من بعدها أن لبنان لا يتسع له والجميل سويًا.

ما إن علم حافظ بنية الجميل الترشح لرئاسة الجمهورية في لبنان حتى استدعى كامل الأسعد رئيس مجلس النواب اللبناني إلى دمشق طالبًا منه مساعدته في منع وصول الجميل للرئاسة،لكن الأسعد رفض تلبية مطلب الأسد؛ فاكفهر وجه الأسد الذي لم يعتد على سماع رفض من أحد وهو في حضرته؛ فَرَدَّ الأسد وقد بَدَت عليه عليه أمارات الغضب:

حسنًا،انتخبوا بشيرًا، لكن كونوا على ثقة أنه لن يتولى الرئاسة.

كان الأسد يقصد كل كلمة تَفَوَّه بها،وما إن غادر الأسعد دمشق حتى استدعى حافظ اللواء محمد الخولي رئيس المخابرات الجوية، وأصدر له الحكم النهائي بشطب بشير الجميل من سجل الأحياء.

هاتف الخولي بدوره نبيل العلم مسئول المخابرات بالحزب السوري القومي الاجتماعي وهو حزب لبناني موالٍ لنظام دمشق مُطْلِعًا إياه على أوامر الأسد،استمع العلم إلى ما قاله الخولى ووعده بتنفيذ أوامر الأسد على الوجه الأكمل.

اتصل العلم بواحد من كوادر الحزب في بيروت وهو حبيب طانيوس الشرتوني مهندس الإلكترونيات ذو الأربعة وعشرين عامًا، والذي أنهى دراسته في باريس للتَوِّ وكَلَّفَهُ باغتيال بشير،ولم يكن اختيار العلم للشرتوني

عَبَثِيًّا؛ فقد كان الشرتوني يسكن فوق مقر حزب الكتائب بحي الأشرفية المسيحيفي بيروت الشرقية، وبالتالي يسهل عليه تنفيذ عملية الاغتيال.

تَعَلَّم الشرتوني كيف يستخدم المتفجرات من العلم،وليلة الرابع عشر من سبتمبر1982م وضع الشرتوني اللمسات الأخيرة على خطة اغتيال الجميل.

اقتلع أرضية غرفته التي تقع فوق سقف مقر الكتائب مباشرةً حيث تقع منصة الخطابة التي سيلقي بشير من عليها خطبة وداع حزبه استعدادًا لتسلم منصبه في الحادي والعشرين من سبتمبروهي فرصة لن تُعَوَّض للخلاص من بشير، وزرع العبوة الناسفة التي سيفجربها المبنى،لكن بقيت عقبة كان على الشرتوني تجاوزها:

شقيقته نوال.

بعدما حزم حبيب أمره ووجد بشيرًا قد وصل بيت كتائب الأشرفية،اتصل حبيب بنوال وأبلغها أنه أصيب في حادث ونُقِل إلى المستشفى وطلب منها الحضور إليه، وبعدما اطمأن حبيب لمغادرتها المنزل نَفَّذ الخطوة الأخيرة من خطته.

ضغط حبيب على الصاعق الكهربائي المفجر للعبوة المزروعة فتحول المبنى إلى أطلال،وعندما وصلت قواع الدفاع المدني وعربات الإسعاف إلى موقع

الانفجار عُثِر على بشير وقد تحول إلى أشلاء، وثارت ثائرة الكتائبيين والإسرائيليين بعد مقتل الرجل الأول في لبنان.

بعد خمسة أسابيع وتدخلات دولية وإقليمية من أمريكا وسوريا، انتخب أمين الجميل شقيق بشير الأكبر رئيسًا للبنان في الثالث والعشرين من أكتوبر 1982م، وهنا تنفس الحريري الصُّعَدَاء؛ فأمين لم يكن دمويًا ولا إقصائيًا كبشير، ورأى أن الوقت مناسب ليدخل على خط الأزمة اللبنانية من جديد.

عرض الحريري خدماته على أمين مقدمًا له عشرات الجرافات والشاحنات ومئات العمال لتنظيف وسط بيروت، وذات يوم في أواخر أكتوبر 1982م دخل الحريري على إيلي سالم وزير الخارجية اللبناني وقتها في قصر بعبدا الرئاسي وقد أنزلت إحدى شاحناته نموذجًا هندسيًا أمام القصر الرئاسي.

سأله سالم مندهشًا:

ما هذا؟

فَرَدَّ الحريري بلهجة الواثق:

هذا تصميمي لوسط المدينة.

زادت دهشة سالم من ذلك الملياردير الذي يبحث عن المتاعب، فهو يحلم بإعمار بلد تحول لأنقاض وحربه الأهلية لم تضع أوزارها بعد، بل وينفق أمواله بسخاء ليخفف من متاعب أبناء بلده بدلًا من استثمارها في شركات جديدة في أمريكا وأوروبا، وزاد على ذلك بسلوكه درب أزمات لبنان الملغومة بحثًا عن حل لها رغم خطورة العواقب.

عن ذلك تحدث سالم شقيق رفيق قائلًا:
"إنه رجل غريب جدًا، كان شديد الثقة بنفسه، كان لبنان ويبقى سلسلةً من المشاكل، وكان رفيق من أولئك الرجال الذين يتدخلون في كل مشكلة ويبدي وجهة نظره لحلها."

هدأت زوابع الغزو الإسرائيلي للبنان، ومضى أمين الجميل في استكمال ما بدأه أخوه فيما يخص إبرام معاهدة سلام بين لبنان وإسرائيل، وكخطوة أولى على هذا الطريق التقى مفاوضون لبنانيون وإسرائيليون في الثامن والعشرين من ديسمبر 1982م لمناقشة عقد اتفاق بين بلديهما.

أرادت إسرائيل سحب جيشها من جنوب لبنان الذي تمركز فيه عقب انسحابه من بيروت التي بقي فيها لفترة عقب خروج منظمة التحرير الفلسطينية، وكان أمين الجميل يتعرض لضغوط أمريكية لإتمام هذا الاتفاق.

في مقابل ذلك كان الجميل يطلب من إدارة ريجان دعمه في صراعه مع حافظ الأسد الوَصِيّ على نظام بيروت ليخفف من القبضة السورية الحديدية على لبنان،كان حافظ الأسد يراقب ما يجريفي فنائه الخلفي ويضع الخطط لإفساده، وبعد عدة أشهر جاء رده مزلزلًا.

الثامن عشر من أبريل 1983م،نسف حزب الله السفارة الأمريكية في بيروت خلال زيارة جورج بوش نائب الرئيس الأمريكي إلى لبنان الذي زار موقع الانفجار عقب لقائه الجميل وأدان ذلك "الحادث الإرهابي" متوعدًا بمحاسبة مرتكبيه، ودفع ذلك الحادث رونالد ريجان للضغط على الجميل للسير في عقد اتفاق مع إسرائيل وقد آتت هذه الضغوط أُكُلَهَا.

السابع عشر من مايو 1983م،عقد الجميل اتفاقًا مبدئيًا مع إسرائيل عرف باتفاق السابع عشر من أيار(الاسم السرياني لشهر مايو) تعهدت فيه إسرائيل بالانسحاب من لبنان خلال ثلاثة أشهر وعقد اتفاقية سلام مع لبنان.

بموجب الاتفاق افتتحت حكومة مناحم بيجين مكتب تمثيل مصالح لها في لبنان كلبنة أولى لتبادل التمثيل الدبلوماسي بين البلدين،وكعادة إسرائيل وضع مفاوضوها عبارة تسمح لهم بالالتفاف على الاتفاق كي لا ينفذوه وهي:

"إسرائيل لن تسحب جنودها إلا بعد انسحاب الجيش السوري من لبنان."

لكن الأسد كان له رأي آخر.

انتقد حافظ الأسد الاتفاق ونعته بـ(اتفاق الإذعان)، وأرسل وزير خارجيته عبد الحليم خدام غير مرة إلى الجميل يحذره أن اتفاقًا كهذا لن يُكْتَب له البقاء،ولما لم يمتثل الجميل حشد الأسد حلفاءه اللبنانيين لتفجير الوضع ونسف الاتفاق؛ فقلب ذلك حسابات الجميل رأسًا على عقب.

اندلعت اشتباكات عنيفة بين الدروز والموارنة في جبال الشوف ذات الأغلبية الدرزية وقفت منها القوات الإسرائيلية موقف المتفرج خشية التورط في معارك تزيد من مأزقها في لبنان، وهنا ظهر الحريري على مسرح الأحداث في لبنان من جديد.

أوفد الملك فهد بن عبد العزيز رفيق الحريري إلى بيروت للتوسط بين الأحزاب المتقاتلة، واستطاع الحريري عقد اتفاق لوقف إطلاق النار حول مطار بيروت بعدما أجبر القصف المدفعي للميليشيات المتحاربة على إغلاق مدارج هبوط الطائرات.

بالإضافة لكون هذا الاتفاق إنجازًا جديدًا أضيف لسجل الحريري في لبنان فإن الحريري استفاد من فتح المطار حيث سيتمكن من السفر بين بيروت

والرياض لعرض آخر المستجدات على العاهل السعودي، لكن الأمور في بيروت عادت لتتفجر مرةً أخرى.

الحادي والثلاثون من أغسطس 1983م، اشتبكت حركة أمل الشيعية مع الميليشيات المسيحية الموالية للجميل في بيروت الغربية، وتناثرت جثث القتلى من الجانبين على مدى أربعة أيام حتى سيطر الجيش اللبناني على بيروت الغربية في الرابع من سبتمبر 1983م، لكن جعبة الأسد لم تخل من وسائل التنغيص على الجميل.

أشعل الأسد الوضع في جبال الشوف عقب الانسحاب الإسرائيلي منها نهاية أغسطس، فأوعز إلى زعيم الدروز السياسي وليد جنبلاط بشن هجمات مسلحة على الموارنة القاطنين في الشوف، فأعمل فيهم مقاتلو الحزب التقدمي الاشتراكي الذي يرأسه جنبلاط قتلًا وتهجيرًا، وأرسل الأسد رسالتين قاسيتين للجميل من وراء أحداث الشوف:

الأولى: أنه -أي حافظ الأسد- الحاكم الفعلي للبنان وليس القابع في قصر بعبدا.

الثانية: تشويه صورة الجميل في عيون بني طائفته من الموارنة وإظهاره في صورة الضعيف الغير قادر على حماية طائفته، فكيف سيحمي لبنان؟

ازدادت الأوضاع تدهورًا في الشوف مع اقتراب شهر سبتمبر من نهايته، فأرسل الملك فهد مبعوثه هذه المرة بندر بن سلطان إلى حيث يكمن الحل والعقد:
دمشق.

سلم بندر الرئيس الأسد رسالةً حساسةً من العاهل السعودي، اطلع حافظ على محتواها وطلب من بندر المكوث لبعض الوقت في دمشق حتى يصله الرد النهائي من حافظ.

وافق بندر على طلب مضيفه وظل في دمشق أكثر من ثلاثة أسابيع التقى خلالها الفرقاء اللبنانيين وتفاوض معهم قبل أن يغادر ثانيةً إلى الرياض حاملًا موافقة الأسد على ما جاء في رسالة العاهل السعودي.

كَلَّفَ الملك فهد رفيق الحريري بالعمل مع بندر، وتردد الاثنان على قبرص عديد المرات للقاء قادة الميليشيات المتناحرة الرافضين للذهاب إلى دمشق للتفاوض، مع الإبقاء على دمشق كنقطة انطلاق إلى قبرص لإطلاع الأسد على آخر المستجدات بصحبة الحريري الذي تَعَرَّف عليه الأسد لأول مرة خلال هذه المفاوضات الماراثونية.

كانت المفاوضات تجري في قبرص على متن طائرة بندر الخاصة لكن بندر لم يستطع دخول بيروت للقاء قادة الميليشيات الرافضين للمفوضات في دمشق أو قبرص.

على العكس من ذلك، كان الحريري يقوم بهذه المهمة بكل سلاسة بعدما حاز ثقة اللبنانيين والسوريين على حد سواء، لكن تحويل الاتفاق الشفهي إلى واقع ملموس استلزم ثلاثة أسابيع أخرى في مفاوضات لا تقل مشقةً عن سابقاتها.

فعلى الرغم من ظهور حافظ الأسد بمظهر المحايد بين المتصارعين والداعم لبندر والحريري في مهمتهما، إلا أنه كان يناور في حقيقة الأمر؛ فقد كان يرغب في إلغاء اتفاق السابع عشر من أيار في البداية ثم يمكن الاتفاق على المواضيع الخلافية لاحقًا، فعرض عليه بندر والحريري الصفقة التالية:

إلغاء اتفاق السابع عشر من أيار مقابل أن يأمر الأسد حلفاءه اللبنانيين بالموافقة والتوقيع على اتفاق يحمي الموارنة ومنصب رئيس الجمهورية.

وافق الأسد على المقترح، وكان على بندر أن يقنع الطرف الثاني في اتفاق السابع عشر من أيار:
الأمريكيين.

أعلم بندر روبرت ماكفرلين مستشار ريجان للأمن القومي رفض السعودية لاتفاق السابع عشر من أيار وهو ما أدهش الرجل في البدية، لكن الدهشة سرعان ما زالت عندما أطلعه بندر على معوقات الاتفاق.

كان أهم هذه المعوقات رفض المسلمين اللبنانيين للاتفاق وصعوبة تمريره في مجلس النواب اللبناني، وأعلمه بموافقة حافظ الأسد على اقتراحه، فطلب منه ماكفرلين الانتظار حتى يعلم الرئيس الأمريكي بما جرى.

بعدما عرض ماكفرلين الأمر على ريجان حصل بندر بعدها على الضوء الأخضر لإتمام صفقته، فالتقى بعدها ببقية الأطراف المعنية وحصل على موافقتهم على ما عرضه الأسد ما عدا الجميل الذي أبدى امتعاضًا بعدما تجاهله بندر. وهنا تدخل الحريري لرأب الصدع بين الرجلين.

طلب الحريري من بندر أن يلتقي الجميل في بيروت، وأن يكون اللقاء بحضور قادة الميليشيات المسيحية ليظهر الجميل في صورة الرجل القوي، لكن اقتراح الحريري اصطدم بالملك فهد وحافظ الأسد.

فقد كان الرجلان رافضين لحضور بندر إلى بيروت وكلاهما له أسبابه، فوجد الحريري مخرجًا لهذا المأزق بأن طلب من الأمريكيين طائرتين مروحيتين توجها بهما إلى قبرص حيث التقيا ماكفرلين هناك.

من قبرص رحل الثلاثة بالطائرة إلى بيروت،وكإجراء احترازي أرسل بندر رسالةً لحافظ الأسد يبلغه فيها أنه في طريقه إلى بيروت حتى لا يسقط حلفاؤه اللبنانيون طائرته خاصةً مع اشتداد المعارك، وكان حدس بندر في محله.

ما إن اقتربت المروحية الأمريكية من الساحل اللبناني حتى فزع بندر والحريري من تناثر القذائف المنفجرة هنا وهناك،وما إن علم الملك فهد برسالة بندر إلى الرئيس السوري حتى انتابه الذعر، وطفق يهاتف الأسد كل نصف ساعة ليطمئن على رجليه حتى اطمأن إلى وصولهما سالمين.

هبطت المروحية في حديقة وزارة الدفاع في بيروت حيث تقرر أن تقلهم ناقلة جند مدرعة وصلوا إليها ركضًا بعدما انهمرت القذائف بالقرب منهم من كل حدب وصوب،وبعدما وصل الثلاثة إلى قصر بعبدا الرئاسي كان الجميل في انتظارهم في غرفة محصنة تحت الأرض.

التقى الثلاثة بالجميل وبصحبته رئيس الوزراء الأسبق صائب سلام حليف السعودية،وأكد الجميل خلال اللقاء أن إنقاذ لبنان متوقف على إدخال صفقة بندر حيز التنفيذ وهو مستعد من ناحيته لإلغاء اتفاق السابع عشر من أيار.

أثلج رد الجميل صدر بندر والحريري اللذين اعتقدا أن اتفاقهما دخل حيز التنفيذ، ثم عاد بندر إلى دمشق عبر قبرص قبل أن يهاتفه الملك فهد ليعرف منه آخر المستجدات بعدما وبخه بالطبع على زيارته لبيروت دون إذنه، فأخبره بندر بثقته من تحويل دمشق الاتفاق إلى واقع ملموس لكن اتضح بعدها أنه كان يلهث وراء سراب.

ما إن غادر بندر بيروت حتى عاد القتال إلى أسوأ مما كان عليه بعد أن تراجع الدروز والشيعة بأمر من الأسد، كما ازداد الوضع تدهورًا في جبال الشوف؛ فاستشاط بندر والحريري غضبًا وقررا مغادرة دمشق.

بعد أن وصلا إلى جدة اتصل بندر بالملك فهد ليخبره أنه حضر للمملكة؛ فوبخه ثانيةً على مغادرة دمشق دون مشورته، فأعلمه أن الأسد لا نية لديه لعقد اتفاق، لكن الأسد خالف توقعات المبعوث السعودي.

هاتف الأسد الملك فهد في العشرين من سبتمبر 1983م طالبًا منه أن يحضر بندر إلى دمشق ثانيةً وإلا سيزور جدة بنفسه ليحضره إلى العاصمة السورية، وعلى الفور أمر العاهل السعودي بندر والحريري بالتوجه إلى دمشق، وفي صباح اليوم التالي التقى بندر الأسد.

أبدى بندر استياءه وغضبه مما جرى، فحاول الأسد تهدئته، وبعدما هدأ بندر أفهمه أنه ما فعل ذلك إلا ليحمي علاقة الأسد بالملك فهد إذا ما شعر

الأخير أن السوريين يخدعونه فقد تنشب أزمة دبلوماسية حادة بين البلدين الشقيقين، فابتسم الأسد وقال له:

"اذهب إلى وزير الخارجية فقد حصلت على اتفاق."

لكن بندر الذي لُدِغَ من جحر الأسد في السابق كان حذرًا هذه المرة، فطلب من حافظ الاتصال بعبد الحليم خدام وزير خارجيته لا ليبلغه أن بندر قادم إليه فقط، لكن ليخبره أيضًا أنه جالس أمام الرئيس ويستمع لما يقوله؛ حتى لا تتكرر سخافات المرة السابقة.

لَبَّى الأسد مطلب بندر، وأبلغ (خدامًا) بما طلبه بندر، ثم طلب منه الاجتماع به، وصل بعدها بندر إلى منزل خدام وطلب منه إعداد وثيقة الاتفاق للتوقيع بعد أن اعتذر في حدة عن تلبية دعوته لتناول الطعام.

بعد ثلاثة أيام وقعت أطراف الأزمة على اتفاق وقف إطلاق النار في نصر آخر للحريري والدبلوماسية السعودية في حقل الألغام اللبناني.

الخامس والعشرون من سبتمبر 1983م، وقف بندر والحريري وماكفرلين وخدام ليعلنوا في مؤتمر صحفي عُقِدَ في دمشق التوصل لوقف إطلاق النار في لبنان يكون ساري المفعول من السادسة صباح السادس والعشرين من سبتمبر، وهو ماتم على الوجه الأكمل.

بعد نجاحه في تلك المهمة، أُوكِلَ للحريري بمفرده - بعدما تولى بندر منصب السفير السعودي في واشنطن - مهمة عقد مؤتمر للمصالحة الوطنية اللبنانية برعاية سعودية، وبالرغم من موافقة أطراف الصراع اللبناني على عقده مبدئيًا، إلا أن الخلاف دب على مكان انعقاده.

تقرر عقد المؤتمر في السعودية بادئ الأمر فرفض بعض قادة الفصائل ذلك، ثم تقرر عقده في مطار بيروت، لكن الزعيم الدرزي وليد جنبلاط رفض؛ لأنه لن يكون مستريحًا في وجود طائرات قادمة وأخرى مغادرة.

اقترح أمين الجميل عقده في قصر بعبدا الرئاسي فرفضه بعض قادة الفصائل، فاقترح رشيد كرامي عقده على ظهر قارب قرب ساحل طرابلس الشام في شمال لبنان فَرُفِضَ أيضًا، وأتى الحل على يد الحريري.

أقنع الحريري الإخوة الأعداء بالاجتماع في فندق انتركونتيننتال جنيف، وبدأت أعمال المؤتمر في الحادي والثلاثين من أكتوبر 1983م، ورغم تمثيل السعودية بوزير دولة إلا أن الحريري كان هو صوت الملك فهد في المؤتمر.

وكان ابن صيدا لا يكل ولا يمل من محاولة إقناع فرقاء الوطن بالتصالح، وبعد خمسة أيام من المفاوضات الشاقة تَعَهَّدَ الجميل بإيجاد

صيغة جديدة لانسحاب إسرائيلي مقابل اعتراف مناوئيه اللبنانيين برئاسته،لكن أمريكا كانت تعارض هكذا خطوة.

كان السبب وراء المعارضة الأمريكية القوية لمؤتمر جنيف وما تمخض عنه من نتائج هي الخشية من فقدان السيطرة على لبنان لصالح الأسد الذي كان في ذروة صدامه مع أمريكا حول السيطرة على لبنان الممزق.

عاد سبب الصدام بين الدولتين إلى مقتل مائتين وواحد وأربعين جنديًا من مشاة البحرية الأمريكية في تفجير إحدى ثكناتهم في بيروت صباح الثالث والعشرين من أكتوبر 1983م.

نفذ هذه العملية القائد العسكري لحزب الله عماد مغنية بالتنسيق مع المخابرات السورية؛ لإجبار إدارة ريجان على ترك باحة الأسد الخلفية يديرها وفق مصالحه، وهو ما تحقق لحافظ في نهاية المطاف.

الثلاثون من يناير 1984م،أعلن رونالد ريجان سحب القوات الأمريكية من لبنان بحلول نهاية فبراير 1984م، وخدمت الأقدار الأسد مجددًا بعدما وصلت الأزمة السياسية في لبنان بين أمين الجميل ونبيه بري ووليد جنبلاط شريكيه في الحكومة إلى طريق مسدود؛ فكانت انتفاضة السادس من شباط (فبراير) 1984م.

سيطرت حركة أمل الشيعية والحزب التقدميالاشتراكي الدرزي على بيروت الغربية بعدما انضمت العناصر الشيعية والدرزية في الجيش اللبناني إليهما في قتالهما ضد الجيش اللبناني الموالي للجميل.

وجد الأسد فيما حدث انتصارًا على الجميل وورقة ضغط يستطيع بها لَيَّ ذراع الرئيس اللبناني؛ ليحكم قبضته على لبنان بعدما أصبحت موازين القوة على الأرض في صالحه ضد الرئيس اللبناني.

طلب الجميل مجددًا مساعدة السعوديين للخروج من ورطته،عرض الملك فهد على الأسد مبادرة سلام سعودية للسلام، دعت إلى إلغاء اتفاق السابع عشر من أيار؛فرفضها الأسد وأجبر الجميل على لقائه في دمشق في التاسع والعشرين من فبراير 1984م.

تعهد الجميل بإلغاء اتفاقية السابع عشر من أيارفي مقابل دعم الأسد لرئاسته،ومن جديد طلب الجميل معونة الحريري جنبًا إلى جنب مع جهود وزير الخارجية اللبناني إيلي سالم لصياغة وثيقة تلغي اتفاق السابع عشر من أيار بما يرضي غرور أسد دمشق.

قام الحريري بجولات مكوكية بين دمشق وبيروت قضاها في التشاور مع عبد الحليم خدام نائب الرئيس الجديد بعد عزل رفعت الأسد؛ إثر

محاولته الانقلاب على حافظ عندما كان في غيبوبة جَرَّاء إصابته بسرطان الدم.

عرض الحريري الوثيقة التي تَوَصَّلَ إليها مع (خدام) على (الجميل)الذي وافق عليها، ولما افتقد وسيلةً تُقِلُّه إلى دمشق طلب من السفير الأمريكي ببيروت طائرة مروحية تقله إلى دمشق.

كان طلبًا غريبًا على السفير الأمريكي الذي أخبر الحريري أن طلبًا كهذا يحتاج لإبلاغ الخارجية الأمريكية التي ستبلغ وزارة الدفاع التي ستبلغ هي الأخرى الأسطول الأمريكي السادس في البحر المتوسط.وبعد أن فرغ السفير الأمريكي من حديثه ألقمه الحريري مفاجأةً جديدةً.

طلب الحريري شراء ثلاث طائرات عسكرية أمريكية ونقلها فورًا إلى مطار بيروت مع تحمل تكاليف طواقمها،دهش السفير من كلام الحريريالذي نفذ طلبه في نهاية المطاف، ووقع في دمشق الاتفاق، ويوم الخامس من مارس 1984م ألغى البرلمان اللبناني اتفاق السابع عشر من أيار.

عقب نجاح وساطته في التوفيق بين الأسد والجميل،وضع الحريري نصب عينيه محاولة عقد مصالحة وطنية جديدة بين بني وطنه المتناحرين ووقع اختياره هذه المرة على لوزان، وهي مدينة سويسرية أيضًا مثل جنيف

امتلك الحريري فيها سلسلةً من الشركات إضافةً إلى قصر تاريخي اشتراه من ورثة أحد البارونات الأوروبيين المشاهير.

عُقِدَ المؤتمر في الثاني عشر من مارس 1984م، وحضره أمين الجميل ووالده بيير رئيس حزب الكتائب، ورئيس حزب النمور الأحرار، والرئيس الأسبق كميل شمعون، ورئيس تيار المردة، والرئيس السابق أيضًا سليمان فرنجية كممثلين عن الموارنة.

مَثَّلَ صائب سلام ورشيد كرامي رئيسا الوزراء السابقان السُّنَّة، ومَثَّل نبيه بري الشيعة، ومَثَّل وليد جنبلاط الدروز، وبالرغم من غياب ممثلي الروم الكاثوليك والأرثوذكس والأرمن، إلا أن الحريري كان يرى أن حضور الطوائف الأربعة سابقة الذكر أكثر جدوى؛ كونها الأطراف الفاعلة على الأرض.

قَدَّمَ الجميل ورقة عمل للإصلاح السياسي، بينما قَدَّمَت الجبهة اللبنانية الممثلة في كميل شمعون وبيار الجميل وسليمان فرنجية ورقة عمل تضمنت طلبًا بتحويل لبنان إلى جمهورية اتحادية تضم أربع مناطق.

أدلى بري وجنبلاط بدلوهما، وقدما ورقة عمل طالبت بانتخاب الرئيس من الشعب، وإنشاء مجلس شيوخ جنبًا إلى جنب مع مجلس النواب على غرار الكونجرس الأمريكي، وإعادة النظر في تركيبة الجيش اللبناني وقوانينه.

ولأن كثرة الطهاة تفسد الطبخة؛ فقد أفسدت كثرة أوراق العمل المقدمة مؤتمر لوزان؛ فانسحب وليد جنبلاط ووصف من حضروا المؤتمر بـ(المومياوات)، ونعت أمينًا الجميل بالشخبوط، ثم سحب وزراءه من الحكومة وخرج المجتمعون من مؤتمر لوزان بخُفَّي حنين.

عندما اختلى الحريري بنفسه في غرفته،دخل عليه محرر جريدة النهار اللبنانية سركيس نعوم ورأى دموع الحسرة الحارقة تسيل على وجنتيه، وكان يسأل نفسه بصوت يمتزج فيه النشيج بالاستنكار:

"ماذا دهى هؤلاء الناس؟يدمرون البلد دون اكتراث."!

تأكد وقتها نعوم أن الحريري لا يبحث عن زعامة أو مجد شخصي، لكنه يفعل ما يفعله عن نية صادقة لرفع البلاء عن لبنان المنكوب الذي ضاق على أهله بما رحب خلال نزاعهم المرير.

لكن ما غاب عن الحريري وقتها أن أطراف الصراع لا يملكون قرارهم،فقرارهم كان في أيدي من يمولونهم الذين رأوا أن ميعاد توقف الحرب لم يحن بعد ويجب أن تستمر شلالات الدماء في الانسياب حتى تتحقق مصالحهم.

بحلول عام 1985م أصبح الحريري متمرسًا في التعامل مع ألغام السياسة اللبنانية متسلحًا بثقة الملك فهد وبثروته وقبل هذا وذاك توكله على

الله،وفي فبراير 1985م ضخ الحريري نصف مليون دولار في الخزانة اللبنانية لمعالجة انخفاض الليرة اللبنانية، وخرج من فشله في مؤتمر لوزان بدرس هام وهو:

لن تنتهي الحرب ولن تجرى إصلاحات دستورية هامة ما لم تقتنع الميليشيات الثلاثة بأهمية الجلوس إلى طاولة المفاوضات وهي:

القوات اللبنانية بقيادة إيلي حبيقة.

حركة أمل بقيادة نبيه بري.

الحزب التقدميالاشتراكي بقيادة وليد جنبلاط.

لذا طرق الحريري هذا الباب.

استطاع الحريري بعد جهد مُضْنٍ إقناع اللاعب الأهم في ساحة الصراع إيلي حبيقة بمد يده إلى سوريا ولعب دور المرسال بينه وبين عبد الحليم خدام، واستضاف لقاءات سرية بين الرجلين على يخته بجزيرة كريت وفي منزله بباريس.

في المرحلة التالية،دارت المفاوضات بين القوى الثلاث في دمشق بوجوده، ووُضِعَت معظم بنود ما عُرِفَ لاحقًا بالاتفاق الثلاثي في منزل الحريري قبل

أن يُوَقَّع عليه في دمشق في الثامن والعشرين من ديسمبر 1985م، لكن الاتفاق لم يصمد طويلًا.

اندلع صراع دمويين إيلي حبيقة وسمير جعجع أوائل يناير 1986م على قيادة القوات اللبنانية، وبعد معارك طاحنة حسم جعجع الأمر لصالحه في الخامس عشر من يناير 1986م ونَحَّى حبيقة جانبًا.

أثار إصرار الحريري على وضع حد للحرب الأهلية في بلاده استغراب جوني عبده رئيس المخابرات العسكرية اللبنانية الأسبق بينما هو في غنى عن ذلك، وعندما التقى الحريري سأله:

"إن لبنان أشبه ببركة قذرة مملوءة بالبراز، فلم تصر على السباحة فيها؟."!

فَرَدَّ عليه الحريري:
"لم أنس طفولتي في صيدا عندما كنت أعمل في جمع ثمار التفاح لقاء خمس ليرات في اليوم، كما أن كوني مسلمًا أعطاني حافزًا إضافيًا لحل أزمة بلادي."

كان الحريري يملك المال كأهم وسيلة لحل النزاع اللبناني الشائك، فكثير من قادة الميليشيات كانت تكفيه حفنة من الأموال ليحصل منه الحريري على ما يريد من اتفاقات على مدار سِنِيّ الحرب.

هذا إلى جانب إنفاقه السخي على مشروعاته الخيرية، وبالمال أيضًا كسب الحريري الكثير من الأصدقاء في أمريكا وأوروبا والعالم العربي،ولم ينس الحريري نصيب السوريين من ماله الوفير.

أقام الحريري روابط وثيقةً مع أقطاب نظام الأسد،كان أوثقها مع نائب الرئيس عبد الحليم خدام وبدرجة أقل مع حكمت الشهابي رئيس الأركان، وتَوَدَّدَ إلى حافظ الأسد وبنى له قصرًا على طريق مطار دمشق حَوَّلَه الأسد لاحقًا إلى فندق.

مع ازدياد ثقة العائلة الحاكمة في السعودية في الحريري،تَحَوَّل الحريري إلى قناة تضخ الأموال السعودية لفرقاء الوطن المتحاربين؛ مما زاد من أهميته كمفاوض بين المتناحرين اللبنانيين.

وأنشأ الحريري بأمواله -إلى جانب الأموال السعودية- شبكةً من الرجال المقتدرين لنصحه وتقديم أبحاث له عن تطورات الأوضاع في لبنان، مستفيدًا في ذلك من نصيحة عبد الله أبي حبيب سفير لبنان في الولايات المتحدة الذي قال له:

"في لبنان عليك تحمل التكلفة وإلا فإنك لن تستطيع الدخول."

وبدءًا من أواسط الثمانينيات بدأ الحريري يحلم برئاسة الوزراء في لبنان بعدما أصبح شخصيةً بارزةًفي الداخل اللبناني تحظى بإجماع الأطراف المعنية بالصراع في لبنان وسوريا.

حتى الملك فهد شجع الحريري على هذا الأمر،خاصةً بعدما كان يدون في دفترخاص به كل دولارأنفقه في مهمته الصعبة،وكان هذا الطموح حافزًا للحريري ليتم المصالحة الوطنية.

ولم يقتصرإنفاق الملايين السعودية وملايين الحريري على الحصول على التنازلات السياسية،بل تخطاه الأمرللإنفاق على الجمعيات الخيرية والمساعدة على دعم الليرة ومنع تدهور قيمتها.

كما كان الحريري يُحَوِّل شهريًا إلى لبنان نصف مليون دولارشهريًا لدفع رواتب جنود الجيش اللبناني؛ حتى لا يفروا للقتال كمرتزقة مع الفصائل المسلحة المتقاتلة كوسيلة لوقف الحرب.

كما اشترى الحريريالمدارس والجامعات لمجرد أن يُبْقِي عليها مفتوحةً، ودفع رواتب الأساتذة ورسوم تعليم الطلبة بالجامعة الأمريكية وكلية بيروت الجامعية، ثم عاد يبحث مرةً أخرى عن حل ينهي به الحرب اللبنانية.

يونيو 1987م، استجاب إيلي سالم وأمين الجميل لدعوة الحريري إلى اجتماع على متن طائرته الخاصة فوق البحر المتوسط في جلسة امتدت من المساء إلى صباح اليوم التالي.

تَرَكَّزَ حديث الحريري خلال الجلسة على عدة مقترحات تقدم بها الملك فهد وتَمَخَّض عما عرف بورقة عمل الحريري، تضمنت اتفاقًا على مواضيع محل نزاع مثل:

هُوُيَّة لبنان العربية، والتمثيل البرلمانيالمتساوي بين المسلمين والمسيحيين،وإلغاء الطائفية على مراحل، وحل الفصائل المسلحة،وصولًا إلى إنهاء الحرب.

وحتى تحوز الورقة الرضا السوري السامي ضَمَّنَهَا الحريري عبارةً ذكيةً وهي:"بمساعدة الشقيقة سوريا"،لكن رغم ذلك لم يتحول الاتفاق إلى واقع نظرًا لفتور حماس حافظ الأسد له، لَكِنَّ ذلك لم يكن نهاية المطاف في سعيالحريري لإيقاف الحرب المجنونة.

أغسطس 1987م،كان الحريري يتناول العشاء مع عبد الله أبي حبيب، وتَفَتَّقَ ذهنه عن خطة لإنهاء الحرب، كانت بنودها هي:

-1منح أمين الجميل ثلاثين مليون دولارليتنازل عن الرئاسة.

-2انتخاب جوني عبده خلفًا له.

-3ترؤس الحريري الحكومة، مؤكدًا قدرته على حل الفصائل المسلحة بدفع نصف مليار دولار مع إرضاء حافظ الأسد، مؤكدًا لحبيب دعم الملك فهد لهذا المقترح.

أبدى أبو حبيب شكوكه في إمكانية موافقة الجميل على هكذا اقتراح،وقد صَدَق حدسه عندما تجاهل الجميل العرض وطواه النسيان.

في العام التالي دخل لبنان في مأزق جديد؛ ففي هذا العام كانت ستنتهي ولاية أمين الجميل، وبالتالي وجب على نواب البرلمان انتخاب خلف له قبل حلول الثاني والعشرين من سبتمبر1988م، لَكِنَّ التجاذب (السوري-الأمريكي) حول الرئيس القادم حال دون إتمام الاستحقاق الرئاسي.

تدخلت إدارة ريجان لفرض مخايل الضاهر كرئيس للبلاد في محاولة لكسر الهيمنة السورية على لبنان،في حين أيد الأسد ترشح الرئيس السابق وصديقه الحميم سليمان فرنجية، وهدد ريتشاد ميرفي المبعوث الأمريكي الأسد بأن لبنان تنتظره الفوضى مالم يُنْتَخَب الضاهر.

لم يأبه الأسد للتهديدات الأمريكية؛ فهو الوحيد القادر على إشعال الفوضى إن أراد وإطفائها متى أراد، وهكذا انتهى عهد الجميل وأصبح

لبنان للمرة الثانية منذ كميل شمعون عام 1958م دون رئيس،وقبل أن يرحل الجميل زاد الطين بلة.

نَصَّ الدستور اللبناني على أنه في حال خلا منصب الرئيس فإن مهامه تؤول لمجلس الوزراء الذي يترأسه سُنّيّ وهو سليم الحص في وقتها،لكن مع تخندق اللبنانيين في وقتها كل وراء طائفته تَأَزَّم الوضع.

رفض الموارنة أن يحكمهم سُنّيّ؛ فاضطر الجميل لتعيين حكومة عسكرية برئاسة ميشيل عون لتدير شئون البلاد، وهو ما رفضه السنة معتبرين أنه خرق دستوري، وأصبح لبنان بلا رئيس وبحكومتين.

لم يسترح حافظ الأسد لميشيل عون؛ فقد كان (عون) مناوئًا قويًا للوجود السوري في لبنان، واكتسب أنصارًا كثرًا بعدما استطاع الجيش اللبناني التغلب على القوات اللبنانية التي يقودها سمير جعجع وأغلق ميناءهم البحري بمنطقة حالات واسترد غالبية بيروت الشرقية منهم،لكن سرعان ما أصاب عون غرور القوة وبدأ تفكيره ينفصل عن الواقع.

اعتقد عون أن بمقدوره إخراج السوريين من لبنان،فَشَنَّ هجومًا مباغتًا على الجيش السوري لَقَّنَه حافظ الأسد بعده درسًا قاسيًا بين مارس وأكتوبر 1989م قاتلًا ما يزيد على الألف من جنود العماد المُسِنّ،وأحكم الحصار حوله انتظارًا لضوء أخضر إقليمي ودولي لإزاحته.

في تلك الآونة كان الفرقاء اللبنانيون برفقة المبعوث العربي الأخضر الإبراهيمي يتفاوضون في مدينة الطائف السعودية لإيجاد اتفاق سلام يسدل الستار على حربهم الضروس، وقد لعب رفيق الحريري دور العَرَّاب في هذا الاتفاق الذي خرج للنور في الثلاثين من سبتمبر 1989م.

فقد أخذ الحريري على عاتقه تَحَمُّلَ نفقات سفر النواب اللبنانيين من وإلى الطائف، وأغدق الأموال على زعماء الفصائل المسلحة لإقناعهم بقبول التوقيع على الاتفاق ووقف القتال على الأرض اللبنانية، وعمل كذلك على التوفيق بين وجهات نظرهم المختلفة.

وكان الحريري كذلك ينقل مع الأمير سعود الفيصل لحافظ الأسد آخر التطورات أولًا بأول حتى لا يضع عقبات جديدة في وجه الاتفاق، وفي النهاية تَصَنَّعَ الأسد الموافقة حتى لا يظهر كمشعل لحريق اتفق الجميع على إطفائه.

رغم إعلان الأسد تأييده للاتفاق بالصيغة التي تَوَصَّلَ إليها اللبنانيون برعاية السعودية والجامعة العربية إلا أنه كان يكيد له في السر؛ ليكون لبنان ما بعد الطائف مثلما كان قبله دميةً يحركها الأسد.